

الأدب في سيرة أعلامه

ملتن

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والحبال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

- ٣٥ -

في سيرة السياسة:

نفض ملتن يديه من الخصومات ، ولبت يترب أنباء الحرب ،
وإن الحنين إلى الشعر ليزداد في نفسه يوماً عن يوم ، حتى ليكاد
يجزم أنه عائد إليه عما قريب وجاعل همه كله إليه ، كما كان أسره
قبل أن ينصرف عنه سنة ١٦٤١ إلى الحرب التي أوقد نارها على
القساوسة معتقداً أنها كانت مما يقضى به عليه الواجب نحو وطنه
في ذلك الوقت .

ولكن حديث السياسة يشغل باله ويستأثر بفكره أحياناً
على الرغم من حنينه إلى الشعر ، حتى ليحسب أصحابها أنها هي
اليوم كل هم ، ولذلك يحارون في أسره: أكان إلى الشعر يومئذ
أم كان إلى السياسة ميله ؟ ولقد نظم مقطوعة سنة ١٦٤٨ يمجّد
بها القائد الظافر فيرفاكس ، ومنها يتبين القارىء شدة اهتمامه
في ذلك الوقت بالسياسة والحرب ، وقوة تحمسه لقضية البرلمان .
قال ملتن : « أي فيرفاكس ^(١) ، يا من يجلبجلب اسمك كجندى
في أنحاء أوروبا جميعاً ، فيملاً كل فم بالحق أو بالثناء عليك ،
ويعلاً الملوك الحاقدين جميعاً عجباً منك ، ويرسل الشائعات المدوية
فتخيف أقصى الملوك موطناً . إن بسالتك الوطنية التي لا تتزعزع
لن تزال تأتي لوطنك بالنصر ، ولو أن ثأرين جدداً يرفعون رؤوسهم
الشبيهة برأس الهيدرا ^(٢) ، والشمال الخوون ^(٣) يعلن ما نقض من

(١) فيرفاكس ، أحد مشاهير قواد البرلمان أثبت بطولته في معركة
نسي سنة ١٦٤٥ وحاز انتصاراً باعراً على الملكيين سنة ١٦٤٨
(٢) التذير الحرافي ذى الرؤوس السبعة التي كلما قطع منها رأس بنت رأس
(٣) يقصد الاسكتلنديين الذين تقصوا ما طاهدوا عليه البرلمان
سنة ١٦٤٣ أن يكونوا نصراً له على شارل

عهد نيريس أجنحتهم الخالدة ، وإن عملاً أجلاً مما فعلت لا يزال
يرجى على يدبك حتى يتحرر الصدق والحق من ربقة العنف ،
ويتخلص الإيمان العام بالعدالة مما اتسمت به الحياة من سمّة مخجلة
هي التدليس العام ^(١) ، إلا أن الحمية لتزف الدم عبثاً ، بينما نرى
الجموع والسطو يقتسمان الأرض »

الحق أنه لم يكن للثمن مندوحة عن السياسة وأنبأها ، حتى
لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يتجنبها ما استطاع ، ومهما
يكن من شدة حنينه إلى الشعر وعظم رغبته في أن يعود إليه ،
وقد حبس نفسه عليه سنين من عمره ، وتوفر على دراسة وسائله
 وأسباب النبوغ فيه ، فما كان يقادر على أن يعتزل قضية الحرية ،
وهو نصيرها في كل وجه من وجوهها ، وإنه وقد استطاع أن
يتزع نفسه من الشعر انتزاعاً سنة ١٦٤١ ليوقد نار الحرب على
القساوسة دفاعاً عن الحرية ليجد اليوم من اليسير عليه أن يرجى
العودة إليه ، ولو إلى أجل قريب لينظر ما ذا تكون عاقبة ذلك
الصراع العظيم بين الملك والبرلمان ، أو بين سلطة الفرد وسلطة
الشعب .

وكان ذلك الصراع العنيف بين الملك والبرلمان صفحة مجيدة
في تاريخ الحرية ، أو فصلاً رائعاً من تاريخ الإنسانية في تمردوها
على الأغلال وأفتها من الاستعباد ، أو على حد تعبير مكول في
قوله : « لقد عاش ملتن في عصر من أبقي العصور ذكراً في
تاريخ البشر ، حيث كانت ساعة الفصل في ذلك التزال العظيم
بين هورومازدو أهريمان ^(٢) بين الحرية والطغيان ، بين العقل
والهوى ، ولم تكن هذه المعركة العظيمة من أجل جيل واحد ولا
من أجل وطن واحد ، وإنما ارتبطت مصائر الجنس البشري كله
بما يكون من مصير الحرية لدى الشعب الإنجليزي ، فها هنا
أعلنت لأول مرة تلك المبادئ الثابتة التي اتخذت منذ ذلك الحين
سبيلها إلى أعماق الغابات الأمريكية ، والتي أثارت تأثرة اليونان
على ما ضرب عليهم ألقى سنة من الذلة والتدهور ، والتي أوقدت
في قلوب الشعوب المظلومة في أوروبا من أحد طرفي القارة إلى
طرفها الآخر ناراً لا تنطفئ جذوتها ، وأرهكت مقاصل الطاغين

(١) اتهم المتخولون البريتريز بالرشوة وفساد الحكم .
(٢) إلهي النور والظلمة في الديانة الفارسية القديمة كما جاءها زرادشت

وطنه ومصيره بسبيل أن يتقروا ، وعاودته حماسه إلى الكتابة ، ومن ثم شرع قلمه .

وأخذ ملتن يعد كتيباً جديداً ، وقد بدأه قبل أن تبدأ محاكمة الملك ، وفرغ منه قبل إعدامه بأيام ، فكان صوته أول صوت ارتفع ، والناس عالقة أنفاسهم دهشة ورهبا ، ونشره في يناير سنة ١٦٤٩ وجعل عنوانه « حق الملوك والحكام » .

وقد ذاع اسمه في أوروبا بهذا الكتيب الذي بر فيه إعدام الملك ، حتى إن زارى إنجلترا يومئذ كانوا يتطلعون إلى رؤية رجلين أحدهما أيفر كرمول رجل السيف ، والثاني جون ملتن رجل القلم . وشاءت الظروف أن يشتهر اسم صاحب الفردوس المفقود أول ما اشتهر في القارة بصلته بمحادث إعدام الملك وجرأته في الدفاع عن هذا الفعل قبل أن يشتهر بالشعر ، فلم يك قد بدأ قصيدته الكبرى بعد ، أما شعره الذي نشره قبل ذلك ، فلم يقدره حق قدره في إنجلترا إلا خاصة المثقفين ، ولم يعرفه في القارة إلا قليلون .

وبعد هذا الكتيب من أكثر كتيبات ملتن متعة وأعظمها شأنًا ، فقد بسط فيه طائفة من المبادئ العامة فيما يتصل بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبعض هذه المبادئ قديم يرجع عهد إلى أول عهد الفسكين من الإغريق بالآراء الديمقراطية ، ولكن ملتن يرضها عرضاً جديداً ، ينشأ بعينه على حسن بيانه إياها سعة ثقافته ، وبعضها يظهر فيه ابتكاره أكثر مما يظهر اعتماده على ما خلف غيره من المفكرين .

والكتيب في مجلته عليه طابع ملتن في سمو بلاغته وشدة حميته وروعة أدائه ، وهو في روحه العامة صيحة على الطغاة ، وتنديداً بالاستبداد ملوكاً وحكاماً ورجال دين ، وقد افتتحه ملتن بتبرير ما فعل الجيش جميعاً ، وعدّ ملحق الملك جزاء عادلاً من الله على ما قدمت يداه ، وجعل جانباً كبيراً منه لتأييد حق الناس في اختيار حكامهم وعزلهم ، واختتمه بمحكمة نكراء على البرستيرينز والقساوسة إلا من كره منهم الاستعداد وحده عن سبيله .

وكانت الفكرة التي بنى عليها ملتن تبريره لإعدام الملك ، هي

بما لا قيل لهم به من خوف .

ونحسب بل نكاد في الحق نجزم أنه لولا ما كان فيه ملتن من شغل شاغل بمحاربة القساوسة ، ثم بما مئى به من خيبة في زواجه ، وماجره ذلك عليه من خلاف شديد بينه وبين البرستيرينز وحرب منه أدارها عليهم ، ما كان ليذرقضية البرلمان بضع سنين بغير دفاع منه في كتيبات كتلك التي نشرها منذ سنة ١٦٤١ ، فإن رجلا له مثل روحه الحرة الوثابة ، ومثل ثقافته الواسعة المتأثرة ، خليق بأن يناضل بقلمه في تلك المعركة الدائرة في سبيل الحرية ، وجدير ألا يكون نضاله بالقلم أقل بأساً من نضال الشاهرين سيوفهم الباذلين في سبيل النصر أرواحهم .

ونعتقد أن بأسه من الإصلاح وحنقه على بني قومه لمعزوفهم عما دعاهم إليه لم يكن كما حسب بعض الناس لئيل به عن السياسة يائساً منها كما يئس من غيرها ، بل لقد كانت المعركة الدائرة هي أمله الباقي الذي ينبثق نوره فيها يكتنفه من الظلمات ، ولذلك علق عليها من الرجاء مثلما يعلقه الفريق على آخر أمل له في النجاة ! وللمتن اهتمام بالسياسة من جهة أخرى ، فهو خصم البرستيرينز ، ويود لو يذهب سلطانهم . وهو منذ حملتهم عليه أقرب إلى المستعدين مذهباً ، بل وأكثر منهم استقلالاً ، ولذلك فهو يتمنى نجاحهم ويتجه بقلبه إلى كرمول وجنوده ، ويتضح موقفه من الفريقين في مقطوعتيه اللتين ندد في أولاهما بالبرستيرينز مستكرهي الضمائر سنة ١٦٤٦ ، وامتدح في الثانية فيرفاكس أحد قواد جيش البرلمان سنة ١٦٤٨ .

هكذا لبث ملتن يتقرب ويجعل للسياسة همه ، فلما تأكدت قوة كرمول والمستعدين بعد الحرب الأهلية الثانية ، تبين أن الثورة توشك أن تصل إلى نهاية حاسمة ، ورأى ملتن أن الملك وقد ظل على شديد استمساكه بالأسقفية ، وأخذ يفاوض البرستيرينز والاسكتلنديين ، إنما يتضح أمره يوماً عن يوم أنه العقبة الكؤود في سبيل التسوية ، فلما أراد زعماء المستقلين أن يخطوا الخطوة التي يقضى بها الموقف ، وهي طرد البرستيرينز من البرلمان ومحاكمة الملك ، تبين ملتن أن الله استجاب دعاءه ، وأن مصير

أن الدولة إن هي إلا أداة لخير الناس وأمنهم ، ولذلك فإن إعدام الملك يتمشى مع القانون القائل : « بأن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى سلامة المجموع إنما يعد عملاً قانونياً مشروعاً » .

وبتكى ملتن على العقل والمنطق في الدفاع عن آرائه كما فعل في كتيباته عن النطاق ، فأساس العلاقة بين الملك وشعبه الوثام والرضى ، فإذا فقد ذلك فقد بطلت شروط تلك العلاقة ، ومن ثم فلا علاقة بينهما ، وللناس من الخروج عن طاعة حاكم يعمل لصالحه دونهم ، « لأن سلطته في الواقع مستمدة من الشعب وفق قانون ، وعن قسم أداه ليؤدي بها حق الشعب في الإصلاح والخير لا لأي شيء خلاف ذلك » .

ويقول ملتن إن الإنسان حر بطبيعته ، وأن الرجل العادل لا حاجة به إلى القانون ، فهو يسير على نهج من طبيعه ، وما جعل الحكومة أمراً ضرورياً إلا فساد الإنسان ، والحكومة مصدرها الناس الذين وصفوا السلطة في أيدي الملوك أو الحكام على أساس شروط معينة ... ويعرف ملتن الطاغية بناء على ذلك بأنه الرجل الذي يمتد أن السلطة سلطته هو ، وأنها ما خلقت إلا لنفعه وخيره ... !

ويعتقد ملتن أن مرد الفساد والشر في السياسة كما في غيرها إنما هو إلى سيطرة العاطفة على العقل ، وعلى ذلك قصدر الشر في الملك عاطفة ، وعواطف الشر في نفسه يوسوس بها الشيطان الذي هو أصل كل عاطفة شريرة ، وإن الواجب ليقضى بمقاومة مثل هذا الملك الذي تتلب في نفسه العاطفة على العقل !

ويضع ملتن القساوسة في موضع الشيطان ، فإنهم في رأيه أشد أعوان الملك على الطغيان ، وأكبر سنده في أيادي فيه من غي وظلم ، ولا يعني بالقساوسة الكاثوليك منهم فحسب ، وإنما يعني كل عب لنفسه شره تحركه الأطماع الدنيا ، خيدين للطغيان ، ويتخذ من الطاغية نصيراً ، ويدافع عنه حتى ليكون حياله كمعدة الأستام . ويمود فيوجه ملتن سهامه إلى البرسبترينز ويلقى على كواهلهم نعمة ما لاقته الملكة من شر على يد شارل ، وينكر عليهم انتماءهم إلى الدين بأى وجه ، أو صلهم بالمسيح إلا ما يكون من مظهر لهم جرى به العرف ، وهم في عدا ذلك ذئاب

جائعة لا تشبع بطونهم مهما كان مبلغهم من الثروة ، وكلما وصلت إلى الرأى المريض أيديهم الآثمة على حساب الفقراء والمساكين قالوا هل من مزيد ، ولا وازع لهم من دين ولا من ضمير !

وكان حربياً أن يشير هذا الكتيب اهتمام القارئ على أمر الدولة ، وأن يمرهم هذا الدفاع عنهم وقد جاء في إبانة ، ورأوا أن رجلاً كؤلفه علماً واسع الثقافة شجاعاً لا يخاف في الحق شيئاً ، فصيحاً لا يبي لسانه بأمر مهما عظم ، هو خليف بأن يعمل عليه كدعامة من دعائم الحكم الجديد ، ولذلك لم يلبث ملتن أن قلّد وظيفة ذات خطر ، فقد جعل قياً على ديوان الرسائل الأجنبية في مجلس الدولة ... والواقع أن هذه الوظيفة لم تكن إلا ستاراً ، فقد كان ملتن رجل القلم والفكر ، المدافع عن الجمهورية الوليدة ، وظل في منصبه هذا يدافع عن الدولة ويرد على كل نقد أو تهجم ، ويكتب ما يوحى به كرمول مما يريد أن يلقى على أنجلترة وعلى أوربا من ضروب القول وأوجه الرأي .

ويتساءل المؤرخون عما دفعه إلى قبول ذلك المنصب ، أ كان ذلك رغبة منه في مظاهرة هذه الحكومة ومناصرتها لما توسم فيها من نصرة الحرية ، أم كان الحاجة إلى المال ، أم كان عن رغبة منه في مراسلة ذوى المكاتب من الأجانب ، أم أن كبرياءه وذهابه بنفسه وإحساسه بما قدره لشخصه من سمو المنزلة ، جعله يطيب نفساً بمثوبة الحكومة إياه ، إذ يحس في عملها هذا نوعاً من الاعتراف بقدره وخطره ؟

ومهما يكن من أمر منصبه الذي ارتضاه ، فما أبعدته عن ذلك الخيال الجليل الذي منى نفسه به قبل ذلك بثمانية أعوام حين تنبأ بفجر بهيج يوشك أن يهل على أنجلترة نوره ، وبشر بشاعره إذ قال : « ولن يعدم ذلك الفجر طائر الصداح ، فلسوف يتفنى من بين هؤلاء القديسين الذين يناخون عن دين الله شاعر ، يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنعم الله ، ويسجل نصر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية ، وقد تخلصت من القساوسة ومجذبت شاعرها المختار » !

وها هو ذا الفجر قد أهل نوره ... فأين طائر الصداح ؟ أين الشاعر وأين لحنه العلوي ؟ كيف ارتضى لنفسه أن يكون

نفس كدفسه بلا ريب لأن يكون ذا صلة بتلك الشخصيات الكبيرة التي قضت بجهادها الرير على الاستبداد الذي يمتعه أشد اللق ، لا عن ملق أو اقتتان بذوى الجاه والمكانة كما يفعل سفار النفوس ، ولكن عن طموح وكبرياء ورغبة في السمو ، وعن محبة وإعجاب بتلك الشخصيات لما تنطوى عليه محبته إياهم من معان ، كما يفعل الآباء من أولى الفضل ...

وثمة رأى آخر يضاف إلى تلك الآراء ، وهو رأى « مارك باتيسون » أحد من أجادوا الكتابة عن ملتن ، ومؤداه أنه لا يبعد أن يكون ملتن قد رأى في المنصب مجالا جديداً للازدياد من المعرفة والحكمة ، وهى مما يتطلبه الشعر من زاد ، فقد طالما رأيناه من قبل بعد بأن يتوفر على الشعر متى استكمل منه عدته ، وتم له ما يتوق إليه من نضج وخبرة بالحياة ، وعلى ذلك فلن تذهب تضحية بوقته وبصره هباء ، فلا سوف تجدى عليه وثيق المعرفة بأحوال الناس وأمور الحياة !

التصنيف

(ينسج)

إدارة الخزنة الفرعية بالنوفيز

تقبل العطاءات لغاية ظهر خمسة أكتوبر سنة ١٩٤٦ عن إنشاء عمليات مياه وحمامات ومغاسل موزعة كالآتى المجموعة الأولى بناحيتى ميت سراج والمجازة .

المجموعة الثانية بناحيتى مليج والملاى .

ثالثاً حمامات ومغاسل فقط بيندر منوف وكلها فى عقد واحد ثمنه جنيهان بخلاف مائة مليج يريد ويطلب على ورقة ذممة ويجوز للقاولين التقدم فى العمليات الثلاث أو فى إحداها . ٥٩٤٥

عمله أن يكتب الرسائل اللاتينية ، وأن ينقل ما يرد منها إلى الإنجليزية ، وأن يرد على الشائين والحاقدين على الدولة فيعود إلى فنت الحصومة وشغب الخلاف ...

أجل ، كيف أثر الشاعر على الخيلة قاعة الحكومة ؟ ذلك ما لا يسعنا إلا أن نحس حياله من المعجب قدراً كبيراً وكان ملتن يحس كما أسلفنا تضاؤل بصره ، ويشعر أن عليه إزاء ذلك أن يقصد كل القصد فى استعمال ناظره ، وكان ذلك وحده كافياً فيما نرى لأن يرفض هذا المنصب الذى يتطلب طول النظر فى الرسائل ما يكتب منها وما يترجم ، وفى غيرها من الأوراق التى تحتاج فيها الحكومة إلى معونته ورأيه .

ولكنه كما رأينا قبل المنصب ، ويرى بعض المؤرخين أن قبوله إياه على شدة حنينه إلى الشعر وكثرة ما يهيجس فى نفسه منه ، وحاجة ناظره إلى الراحة ، هو ضرب جديد من التضحية أشبه بتضحيته الأولى حين هجر الشعر على رغبته سنة ١٦٤١ استجابة منه لداعى الحرية ، فقد كان يعتقد ملتن أن مساهمته ولو بقدر صغير فى بناء مروح الحكومة الجديد عمل ينطوى على معنى الوطنية ، وبخاصة أنه كان يؤمن يومئذ أن الحكومة الجديدة وقد جاءت نتيجة لذهاب الطغيان لابد أن تظل نصيرة للحرية ، ولقد أشار إلى هذا المعنى بعد ذلك بقليل فى أحد كتيباته قائلاً : إنه تقدم عن طيب خاطر لىخدم بلاده ، حينما طلب إليه ذلك القاعون على الأمر ، وأنه لم يطلب على ذلك أجراً ووحسبه من الأجر ارتياح ضميره ورضاؤه عن نفسه ، والحق أن المال لم يكن له دخل فى قبوله ذلك المنصب ، فإنه وإن كان ملتن فقيراً ، فقد كان القليل من المال حسبه لا تتطلبه أكلاف عيشه وهى يومئذ قليلة ، وكان لا يموزه هذا المال القليل .

ونعتقد أن ملتن على حق فيما يمثل به من علة ، وليس يمنع هذا من أن نصنيف إليها علة أخرى لها كما لهذه فى طبعه من الشواهد ما يكاد يؤكدها ، وتلك هى رغبته التى لازمته منذ صفره فى أن يكون على القدر ممتاز المكانة ، واختياره لهذا المنصب يحقق له تلك الرغبة ، فضلاً عما فيه من معنى الاعتراف له بالفضل وعلو المكانة فى مجال الأدب والمعرفة ، وكانت تطرب